الفصل الرابع عشر

أنواع الغرائز

غريزة حب الذات:

غريزة حب الذات هى العماد الكبير والوازع العظيم الذى يدفع الكائنات الحية إلى تحصيل أقواتها، والدفاع عن سلامتها؛ فالنبات تكبر جذوره وتتشعب فى باطن الأرض سعيا وراء الغذاء، ومن أجله يعدو بعضه على بعض تسلقا واستنادا وامتصاصا. والحيوان طلبا للغذاء يبطش قويه بضعيفة، ووحشية بأليفه. ومع أن الإنسان قد ساد أنواع الحيوان لا يستطيع أن يحصى ما يهاجمه فى كل لحظة، فهو ما عاش مهدد بالهوام تتسابق لامتصاص دمه، وحقنه بنفثات سمومها، ومهدد بجيوش الجراثيم تناوئه أينما ذهب متغذيا كان أو متنفسا، وتترقب فيه الضعف فتنقض عليه وتقتله.

لو أن الناس تحابوا لتعاونوا على مجابهة الأعداء، بهمة، لكنهم اختلفوا فى المشارب والأهواء، وسلموا على أنفسهم سيف القضاء، واستعجلوا الفناء.

وكلما زادوا حضارة وعلما، زاد التنازع بينهم فتكا ونقضا وهدما

تجد الطفل القاصر يعبث بممتلكات غيره، ويتمنى أن يكون كل شيء ملكا له، لأن مدى شهوته للطعام والشراب بعيد. اصبر على هذا الطفل حتى ينمو عقله، وتنفذ إرادته فى صلب الحقائق تجده لا يتحقق محبة ذاته إلا إذا وصلها بمحبة غيره نوعا ما، فإذا واسى مكروبا أو أعان بائسا أو أطعم مسكينا فكأنه يجر النفع إلى

نفسه، لأنهم لا ينفكون يذكرون رحمته بهم فيردون له جميلا مثله، أو ينطقون بشكره إذا أعجزتهم القدرة. هذا وإن ترقب المجازاة من أجل الدوافع لإسداء المعروف واجتناب المنكر. وقد حبب الله تعالى إلى النفوس الأتقياء محبة العمل الصالح وبغضهم فى الشر، ورغبة فى نيل ثوابه واتقاء عقوبته.

يحب الإنسان أبناءه لأنه يتوقع منهم المساعدة إذا قدروا على الكسب، وأضناه الكبر؛ وهذا الحب ظاهر فى الإناث مطلقا نحو صغارها حفظا للنوع، وترى هذا الحب يأخذ فى النقص كلما كبروا، واستطاعوا السعى واعتمدوا على النفس. وما تسامح المرأة لأبنائها إذا أذنبوا إلا وازع هذا الحب الغريزي. جاء فى أمثال الميداني: أن رجلا تزوج امرأة وله أم عجوز، فقالت المرأة للزوج: لا أنا ولا أنت حتى تخرج هذه العجوز عنا. فلما أكثرت عليه احتملها على عنقه ليلا، حتى أتى واديا كثير السباع فرمى بها فيه، ثم تنكر لها فمر بها وهى تبكى فقال: " ما يبكيك يا عجوز "؟ فقالت: طرحنى ابنى هاهنا وذهب وأنا أخاف أن يفترسه الأسد ". فقال لها: " تبكين له وقد فعل بك ما فعل، هلا تدعين عليه "؟ قالت: إنه حبة عمرى بهجة قلبي. وكما يقول المثل: " قلبى على ولدى انفطر وقلب ولدى علىّ حجر ".

فإذا علمت أن حب الوالدة لولدها طبيعي، فلا أخالك تنكر أن حب الوالد لوالدته أو لوالده وليد المعروف وثمرة العطف والحنان، فالولد يحب والديه متى أحس عطفهما عليه، ومتى عاقباه انقلب حبه كرها، لأن الغرض الشريف من العقوبة التى يوقعانها به يدق فهمه على ذهنه، فيتبادر لعقله القاصر أنهما يسيئان إليه.

ويحب الإنسان إخوانه مدفوعا بعامل المبادلة فى المنفعة، وهذا الحب مؤقت يبقى ما بقيت المصلحة. قيل: إن رجلا جمع أبناءه الثلاثة وأعطى أحدهم خبزا، والثانى لحما، والثالث فاكهة، وجلس الجميع مع بعض، فتطلع كل منهم إلى ما بيد أخويه، واتفقوا على أن يقسم كل منهم نصيبه على ثلاثة، يبقى الثلث لنفسه، ويبادل أخويه فى الثلثين الآخرين، فتم لكل واحد منهم أنصبة متعادلة من الخبز واللحم والفاكهة، ولولا هذا النفع المتبادل ما اتفقوا.

يشترك الإنسان والحيوان فى أن العزلة مضادة لطبعهما، وأن الاجتماع فيه تساند وتآزر، فالنحل حيوان اجتماعى لا يستطيع صنع العسل إلا بمساعدة رفقائه، والنمل لا يدخر قوته إلا بمشاركة أفراده، والخطاف لا يهاجر من أوطانه إلا أسرابا، والدواجن تعيش هنيئة إذا اجتمعت، ويرى عليها البؤس إذا افترقت. والبقرة المعزولة لا تدر اللبن ولا تسمن مثل البقرة وسط القطيع.

الأثرة والإيثار:

الفضيلة وسط بين طرفى الأثرة والإيثار، وقد ورد: "**حب لغيرك ما تحب لنفسك**". نعم تنحط عن الفضيلة نفس من يبذر فى ماله ولو فى سبيل الجود، ونفس من يلهو عن غيره بمصالح نفسه، ومن يلعب الغرور بعقله فيرى نفسه جديرة بالمديح وهى مجردة من وسائله، ومن يصادر إخوانه فى حقوقهم ويقف منهم موقفا ممقوتا، فيحقد على من ساووه، وينكر فضل من فاقوه، ويستخف بمن نقصوا عنه.

وليس من المحبة المنشردة أن يجامل الإنسان أخاه بعبارات السرور عند سبوغ النعمة، وأن يسليه بالكلام عند نزول الكارثة. وإنما المحبة الحقيقية أن يتوجه بالفعل إلى جر النفع ودرء الضر متخذا من المال والجاه عضدا قويا. ولا يكون إشفاقه على البائسين صادقا إلا إذا جرب لوعة الجوع والعرى والحاجة، ولذلك شرعت زكاة الفطر بعد صوم شهر رمضان لتكون النفس قد عرفت وطأة الجوع والعطش فتسعى فى تخفيفها.

أراد معلم أن يبث فى نفوس تلاميذه محبة الإحسان إلى البائسين، فأخر عنهم الغذاء قليلا حتى هاجمهم ألم الجوع، ثم أقبل عليهم وقص حديث من نكبتهم الأيام، فطردوا من ديارهم، أو أوذوا فى نفوسهم وأموالهم، فجادوا بالنزر اليسير، والكريم من جاد بما عنده.

ولا يخفى أن تعويد الناشئ مد يد المساعدة للمحتاجين مقلل من شوكة الأثرة، ولاسيما إذا وجد من إخوانه إقبالا على فعل الجميل، فليشترك التلاميذ فى جمع إعانات ينفقونها فى تعليم من تتوافر فيهم المواهب الذهنية من الفقراء، أو يتعاونوا جميعا على تفهيم المسائل كما كان يفعل بستالوتزى إذ كان يجلس التلميذ الذكى بين التلميذين الضعيفين ليرشدهما: ناهيك بما تحدثه زيارة ملاجئ العجزة ومستشفيات المرضى فإنها داعية إلى محبة المعروف، مرشدة إلى أن الإنسان عرضة لتقلبات الزمان، وما أحوج هؤلاء المرضى إلى كلمة تسلية يسمعونها من زائر تخفف عنهم لوعة الوحشة والأحزان، أو إلى هدية تريح نفوسهم، وتدفع بهم إلى التفكير فى وسائل الشفاء!

وللأندية والمعارض وجمعيات التعاون والنقابات والمجلات والصحف وممارسة المناقشات الموصلة إلى الحقائق شأن كبير فى تأليف النفوس بعضها ببعض على قواعد الإخاء المتين والحب المتبادل. وقد قرر علماء الاقتصاد أن الشخصين المجتمعين يشتغلان فى يوم واحد ما لا يستطيع الفرد أن يعمله فى يومين. فالفرق بين العملين هو فضل الاجتماع وثمرة التعاون والمحبة بينهما.

إن المجتمعات وحدها وسيلة متينة لتوثيق عرا الوداد، وتمكين أسباب الإخاء والود بين أعضائها. فقد يكون العضو محبا لقوم يشاركهم فى مجتمع خاص، ومحبا لآخرين يشاركهم فى مجتمع آخر. بل قد يكون للفرد الواحد اشتراك مع غيره فى مجتمعات عدة، فيتضاعف حبه لهم بمقدار ذلك.